الفصل السادس
بين الحاسدين والمحسودين

إن الحسد قد وجد منذ خلق أبونا آدم، وجعل إبليس يطيف به فرآه أجوفًا فقال: هذا خلق لا يتمالك.

فكان بداية الحسد وبقي بعد ذلك وسيبقى إلى قرب الساعة وذلك حين نزول عيسى بن مريم - عليه السلام - فإنه يزول الحسد وذلك يكون مصداقًا لما أخرجه مسلم (١٥٥) (٢٤٣) عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: « **والله لينزلن ابن مريم حكمًا عدلاً فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية وليتركن القلاص فلا يسعى عليها ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد**».

فمن هذا يعلم أن الحسد كان ولا يزال حتى ينزل عيسى وسأنقلك الآن إن شاء الله إلى أمثلة مما مضى من ذلك.

أمثلة من الحاسدين والمحسودين:

سأذكر بمشيئة الله أمثلة على هذا وذلك على سبيل الإيجاز والاختصار؛ لأنا لو أطلقنا للقلم عنانه في هذا لخرجنا بسفر ضخم في هذا مليء بقصص الحاسدين والمحسودين والمطلع على التاريخ وعلم الرجال يعلم هذا. والله المستعان.

فمن ذلك:

[١] إبليس حسد آدم عليه السلام وكانت هي أول معصية عصي الله بها، وقد تقدم الكلام على ذلك.

[٢] ابنا آدم كما قد قص الله علينا قصتهما في القرآن فأدى بالحاسد حسده إلى قتل أخيه، وقد تقدم ذكر ذلك.

[٣] حسد اليهود لنبينا ﷺ ولأتباعه من بعده.

[٤] حسد المنافقين للنبي ﷺ وقد تقدم ذكر ذلك كله [١] .

[٥] الحسد للإمام مالك:

قال ابن سعد: حدثنا الواقدي قال: لما دعي مالك وشوِّر وسمع منه وقبل قوله «حسد».

وبغوه بكل شيء، فلما ولي جعفر بن سليمان المدينة، سعوا به إليه، وكثروا عليه عنده.

وقالوا: لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشيء، هو يأخذ بحديث رواه عن ثابت بن الأحنف في طلاق المكره، أنه لا يجوز عنده.

قال: فغضب جعفر فدعا بمالك فاحتج عليه بما دفع إليه عنه فأمر بتجريده، وضربه بالسياط وجبذت يده حتى انخلعت من كتفه، وارتكب أمر عظيم فوالله ما زال مالك بعد في رفعة وعلو.

قال الذهبي في «السير» (٨/٨١) بعد هذه الحكاية:

قلت: هذا ثمرة المحنة المحمودة أنها ترفع العبد عند المؤمنين، وبكل حال فهي بما كسبت أيدينا، ويعفو الله عن كثير **«ومن يرد الله به خيراً يصب منه»** [٢] ،

---

(١) وانظر أيضاً هذه الوقائع الأخرى التي سأشير لك إلى مصادرها:
أ - بين أبي الزناد وربيعة «السير» (٦/٩١).
ب - بين مغيرة وأبي إسحاق «السير» (٥/٣٩٩).
جـ - ابن إسحاق ومالك وإبراهيم والشعبي وعكرمة «السير» (٧/٤٠).
د - مكحول ورجاء بن حيوة «السير» (٤/٥٥٨).
هـ - قتادة ويحيى بن أبي كثير «السير» (٥/٢٧٥).
و - الإمام البخاري والنهلي «السير» (١٢/٤٥٣)، و«تاريخ بغداد» (٢/٣٠).
ز - ابن أبي الليث ويعقوب البويطي «طبقات الشافعية» (١/٦١).
ح - الدقاق وابن سمكويه «السير» (١٩/١٧).
ط - بين ابن مندة وأبي نعيم انظر «أخبار أصبهان» (٢/٣٠٦)، و«السير» (١٧/٣٤)، وانظر «جامع بيان العلم وفضله» للحافظ ابن عبد البر باب «حكم قول العلماء بعضهم في بعض» (٢/١٠٨٧-١١١٩).

(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة.

وقال النبي ﷺ: «**كل قضاء المؤمن خير له**» (١)، وقال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ [محمد: ٣١]، وأنزل تعالى في وقعة أحد: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥)﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠)﴾ [الشورى: ٣٠].

فالمؤمن إذا امتحن وصبر واتعظ واستغفر ولم يتشاغل بذم من انتقم منه، فالله حكم قسط ثم يحمد الله على سلامة دينه ويعلم أن عقوبة الدنيا أهون وخير له.

[٦] حسد الحاسدين لعبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس العباسي:

قال الذهبي في «السير» (٢٢٢/٩):

قال الزبير بن بكار: كان عبد الملك نسيج وحده أدبًا ولسانًا، وشي به، وتتابعت فيه الأخبار، وكثر حاسدوه، وبلغ الرشيد عنه أنه على عزم الخروج ويقال: إنه ما حبسه إلا لما رآه ليس له نظير في السؤدد.

[٧] الحاسدون لأبي إسماعيل الهروي:

هو الإمام الكبير عبد الله بن محمد بن علي الهروي من ذرية الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

قال الذهبي: كان شيخ الإسلام أثريًا قُحًا، صداعًا بالحق قوالاً به لا يخاف في الله لومة لائم.

قال ابن طاهر: سمعته يقول: عرضت على السيف خمس مرات لا يقال لي: ارجع عن مذهبك لكن يقال: اسكت عمن خالفك فأقول: لا أسكت.

ولما كان الأمر هكذا فقد كاد له حساده ومخالفوه مكايد من ذلك:

قال ابن طاهر: سمعت أصحابنا بهراة يقولون: لما قدم السلطان ألب بن أرسلان «هراة» في بعض قدماته اجتمع مشايخ البلد ورؤساؤه ودخلوا على أبي

(١) قطعة من حديث عند أحمد (٢٤/٥).

إسماعيل وسلموا عليه ، وقالوا: ورد السلطان ونحن على عزم أن نخرج ونسلم عليه فأحببنا أن نبدأ بالسلام عليك، وكانوا قد تواطئوا على أن حملوا معهم صنمًا من نحاس صغير ، وجعلوه في المحراب تحت سجادة الشيخ وخرجوا وقام الشيخ إلى خلوته ودخلوا على السلطان واستغاثوا من الأنصاري وأنه مجسم وأنه يترك في محرابه صنمًا يزعم أن الله تعالى على صورته وإن بعث السلطان الآن يجده، فعظم ذلك على السلطان وبعث غلامًا وجماعة، فدخلوا وقصدوا المحراب فأخذوا الصنم فألقى الغلام الصنم.

فبعث السلطان من أحضر الأنصاري فأتى فرأى الصنم والعلماء، وقد اشتد غضب السلطان فقال له السلطان: ما هذا ؟ .

قال: صنم يعمل من الصفر شبه اللعبة.

قال: لست عن ذا أسألك، قال: فعم يسألني السلطان، قال: إن هؤلاء يزعمون أنك تعبد هذا ، وأنك تقول: إن الله على صورته.

فقال شيخ الإسلام بصولة وصوت جهوري: « سبحانك هذا بهتان عظيم ».

فوقع في قلب السلطان أنهم كذبوا عليه، فأمر به فأخرج إلى داره مكرمًا.

وقال لهم: اصدقوني وهددهم فقالوا: نحن في يد هذا في بلية من استيلائه علينا بالعامة فأردنا أن نقطع شره عنا.

فأمر بهم ووكل بهم وصادرهم، وأخذ منهم وأهانهم[1] .

مكيدة أخرى:

قال ابن طاهر: حكى لي أصحابنا أن السلطان ألب بن أرسلان قدم « هراة » ومعه وزيره نظام الملك فاجتمع إليه أئمة الحنفية وأئمة الشافعية للشكوى من الأنصاري ومطالبته بالمناظرة فاستدعاه الوزير فلما حضر قال: إن هؤلاء قد اجتمعوا لمناظرتك فإن يكن الحق معك رجعوا إلى مذهبك وإن يكن الحق معهم

(١) « تذكرة الحفاظ » (٣/ ١١٨٨، ١١٨٩)، و« السير » (١٨/ ٥١٢).

رجعت أو تسكت عنهم فوثب الأنصاري وقال:

أناظر على ما في كمي قال: وما في كمك؟ ، قال: كتاب الله وأشار إلى كمه اليمين وسُنَّة رسول الله وأشار إلى كمه اليسار وكان فيه الصحيحان، فنظر الوزير إليهم مستفهمًا لهم فلم يكن فيهم من ناظره من هذا الطريق [١] .

مكيدة أخرى:

قال ابن طاهر: وسمعت خادمه أحمد بن أميرجه يقول: حضرت مع الشيخ للسلام على نظام الملك وكان أصحابنا كلفوه الخروج إليه ـ وذلك بعد المحنة ورجوعه إلى وطنه من «بلخ» ـ يعني أنه كان قد غرب ـ قال: فلما دخل عليه أكرمه وبجله وكان هناك أئمة من الفريقين فاتفقوا على أن يسألوه بين يدي الوزير.

فإن أجاب بما يجيب به «بهراة» سقط من عين الوزير وإن لم يجب سقط من عيون أصحابه وأهل مذهبه.

فلما دخل واستقر به المجلس انتدب له رجل من أصحاب الشافعي يعرف بالعلوي الديوسي فقال: يأذن الشيخ الإمام في أن أسأله مسألة؟ فقال: سل، فقال: لم تلعن أبا الحسن الأشعري؟ قال: لا أعرف الأشعري، وإنما ألعن من لم يعتقد أن الله عز وجل في السماء وأن القرآن في المصحف وأن النبي اليوم نبي ، ثم قام وانصرف، فلم يمكن أحد أن يتكلم من هيبته وصلابته وصولته.

فقال الوزير للسائل ومن معه: هذا أردتم؟ ، كنا نسمع أنه يذكر هذا «بهراة» فاجتهدتم حتى سمعناه بآذاننا وما عسى أن أفعل به ، ثم بعث خلفه خلعًا وصلة فلم يقبلها [٢] .

وله محن ليس هذا موضع طرحها تراجعها إن شئت في ترجمة هذا الإمام.

---

(١) «تذكرة الحفاظ» (٣/ ١١٨٧)، و«السير» (١٨/ ٥١٠، ٥١١).

(٢) «تذكرة الحفاظ» (٣/ ١١٨٧، ١١٨٨)، «السير» (١٨/ ٥١٢)، «ذيل طبقات الحنابلة» (١/ ٥٤، ٥٥).

[٨] حسد منصور بن يحيى الطوسي لتلامذة ابن خزيمة وشيخهم:

قال الحاكم: حدثني أبو بكر محمد بن حمدون وجماعة من مشايخنا ـ إلا ابن حمدون ـ كان من أعرفهم بهذه الواقعة، قال: «لما بلغ أبو بكر بن خزيمة من السِّنِّ والرئاسة والتفرد بهما ما بلغ ـ كان له أصحاب صاروا في حياته أنجم الدنيا مثل:

■ أبي علي محمد بن عبد الوهاب الثقفي: وهو أول من حمل علوم الشافعي ودقائق ابن سريج إلى خراسان.

■ ومثل: أبي بكر أحمد بن إسحاق ـ يعني: الصبغي، خليفة ابن خزيمة في الفتوى، وأحسن الجماعة تصنيفًا وأحسنهم سياسة في مجالس السلاطين.

■ وأبي بكر بن أبي عثمان، وهو آدبهم، وأكثرهم جمعًا للعلوم وأكثرهم رحلة، وشيخ المطوعة والمجاهدين.

■ وأبي محمد يحيى بن منصور، وكان من أكابر البيوتات وأعرفهم بمذهب ابن خزيمة وأصلحهم للقضاء.

قال: فلما ورد منصور بن يحيى الطوسي «نيسابور»، وكان يكثر الاختلاف لابن خزيمة للسماع منه، وهو معتزلي وعاين ما عين من الأربعة الذين سميناهم حسدهم.

واجتمع مع أبي عبد الرحمن الواعظ القدري بباب معمر في أمورهم غير مرة فقال: هذا إمام لا يسرع في الكلام، وينهى أصحابه عن التنازع في الكلام وتعليمه، وقد نبغ له أصحاب يخالفونه وهو لا يدري، فإنهم على مذهب الكلابية، فاستحكم طمعهم في إيقاع الوحشة بين هؤلاء الأئمة.

قال الحاكم: وحدثني عبد الله بن إسحاق الأنماطي المتكلم قال: لم يزل الطوسي بأبي بكر بن خزيمة حتى جرأه على أصحابه، وكان أبو بكر بن إسحاق وأبو بكر بن أبي عثمان يردان على أبي بكر ما يمليه، ويحضران مجالس أبي علي

الثقفي فيقرءون ذلك على الملأ حتى استحكمت الوحشة.

سمعت أبا سعد عبد الرحمن بن أحمد المقرئ، سمعت ابن خزيمة يقول: القرآن كلام الله ووحيه وتنزيله غير مخلوق ومن قال: «شيء منه مخلوق» أو يقول: «إن القرآن محدث» فهو جهمي.

ومن نظر في كتبي بان له أن الكلابية ـ لعنهم الله ـ كذبة فيما يحكون عني بما هو خلاف أصل ديانتي، وقد عرف أهل الشرق والغرب أنه لم يصنف في التوحيد والقدر وأصول العلم مثل تصنيفي وقد صح عندي أن هؤلاء ـ «الثقفي، والصبغي، ويحيى بن منصور» ـ كذبة قد كذبوا علي في حياتي فمحرم على كل مقتبس علم أن يقبل منهم شيئًا يحكونه عني.

وابن أبي عثمان أكذبهم عندي، وأقولهم علي ما لم أقله.

قال الذهبي: ما هؤلاء بكذبة، بل أئمة أثبات وإنما الشيخ تكلم على حسبما نقل له عنهم، فقبح الله من ينقل البهتان، ومن يمشي بالنميمة.

قال الحاكم: سمعت أبا بكر أحمد بن إسحاق يقول: لما وقع من أمرنا ما وقع وجد أبو عبد الرحمن ومنصور الطوسي الفرصة في تقرير مذهبهم.

واغتنم أبو القاسم وأبو بكر بن علي والبردعي السعي في فساد الحال.

انتصب أبو عمرو الحيري للتوسط فيما بين الجماعة، وقود لأبي بكر بن خزيمة اعترافنا له بالتقدم وبين له غرض المخالفين في فساد الحال إلى أن وافقه على أن يجتمع عنده فدخلت أنا وأبو علي وأبو بكر بن أبي عثمان فقال له أبو علي الثقفي: ما الذي أنكرت أيها الأستاذ من مذاهبنا حتى نرجع عنه؟.

قال: ميلكم إلى مذهب الكلابية فقد كان أحمد بن حنبل من أشد الناس على عبد الله بن سعيد بن كلاب وعلى أصحابه مثل الحارث وغيره.

حتى طال الخطاب بينه وبين أبي علي في هذا الباب فقلت: قد جمعت أنا

أصول مذهبنا في طبق فأخرجت إليه الطبق، فأخذه وما زال يتأمله وينظر فيه ثم قال: لست أرى ها هنا شيئًا أقول به فسألته أن يكتب عليه خطه أن ذلك مذهبه فكتب آخر تلك الأحرف.

فقلت لأبي عمرو الحيري: احتفظ أنت بهذا الخط حتى ينقطع الكلام، ولا يتهم واحد منا بالزيادة فيه ثم تفرقنا.

فما كان بأسرع من أن قصده أبو فلان وفلان وقالا: إن الأستاذ لم يتأمل ما كتب في ذلك الخط وقد غدروا بك وغيروا صورة الحال فقيل منهم فبعث إلى أبي عمرو الحيري لاسترجاع خطه منه فامتنع عليه أبو عمرو ولم يرد حتى مات ابن خزيمة وقد أوصيت أن يدفن معي فأحاجه بين يدي الله تعالى فيه»[1].

[٩] حسد الحاسدين لأبي طالب عبد السلام بن الحسين المأموني من ذرية المأمون الخليفة العباسي:

قال ابن النجار:

«كان بديع النظم مدح الملوك والوزراء، وامتدح الصاحب بن عباد فأكرمه فحسده ندماء الصاحب وشعراؤه، فرموه بالباطل، وقالوا: إنه دعيٌّ، وقالوا فيه: ناصبي، ورموه بأنه هجا الصاحب فذلك يقول ليسافر:

يا ربع لو كنت دمعًا فيك منسكبًا ... قضيت نحبي، ولم أقض الذي وجبا

لا ينكرن ربعك البالي بلا جسدي ... فقد شربت بكأس الحب ما شربا

عهدي بربعك للذات مرتبعًا ... فقد غدا لفؤادي السحب منتحبا

ذو بارق كسيوف الصاحب انتصبت ... ووابل كعطاياه إذا وهبا

وعصبة قال فيها القيظ متقدًا ... إذ شدت لي فوق أعناق الورا رتبا

إني كيوسف والأسباط هم وأبو الأ ... سباط أنت ودعواهم دمًا كذبا

قد ينج الكلب ما لم يلق ليثًا شري ... حتى إذا ما رأى ليثًا مضى هربا

---

(١) «السير» (١٤/ ٣٧٧-٣٨١).

قال الثعالبي: «ففارق الري»، ووفد «نيسابور» ومدح صاحب الجيش فوصله وقدم «بخارى» فأكرم بها عاشرت منه فضلاً ملء ثوبه، وكان يسمو بهمته إلى الخلافة ويمني نفسه في قصد بغداد في جيوش تنظم إليه من «خراسان» فاقتطعته المنية، ومرض بالاستسقاء»[١].

[١٠] حسد يحيى بن خالد البرمكي لمحمد بن الليث:

قال الذهبي في «السير» (٩/٦٤): قيل: إن ثمامة قال: أول ما أنكر يحيى بن خالد - يعني البرمكي - من أمره - يعني من الرشيد - أن محمد بن الليث رفع رسالة إلى الرشيد يعظه فيها: «إن يحيى لا يغني عنك من الله شيئًا».

فأوقف الرشيد يحيى على الرسالة وقال: أتعرف محمد بن الليث؟ قال: نعم هو متهم على الإسلام، فسجنه، فلما نكبت البرامكة أحضره وقال: أتحبني؟ قال: لا والله، قال: أتقول هذا؟ قال: نعم، وضعت في رجلي القيد وحلت بيني وبين عيالي بلا ذنب سوى قول حاسد يكيد الإسلام وأهله ويحب الإلحاد وأهله.

فأطلقه وقال: أتحبني؟، قال: لا ولا أبغضك فأمر له بمائة ألف وقال: أتحبني؟ قال: نعم، قال: انتقم الله ممن ظلمك فقال الناس في البرامكة وكثروا[٢].

[١١] حسد الحاسدين لبقي بن مخلد:

وقال أبو الوليد بن الفوضي في «تاريخه»[٣]:

ملأ بقي بن مخلد الأندلس حديثًا فأنكر عليه أصحابه الأندلسيون أحمد بن خالد ومحمد بن الحارث وأبوزيد ما أدخله من كتب الاختلاف وغرائب الحديث، فأغروا به السلطان وأخافوه به ثم إن الله أظهره عليهم، وعصمه منهم فنشر حديثه وقرأ للناس روايته ثم تلاه ابن وضاح فصارت الأندلس دار حديث وإسناد مما انفرد به ولم يدخله سواه «مصنف أبي بكر بن أبي شيبة» بتمامه

---

(١) انظر «السير» (١٦/٥٠١، ٥٠٢).

(٢) انظر «تاريخ الطبري» (٨/٢٨٨).

(٣) كما في «السير» (١٣/٢٨٧)، و«تذكرة الحفاظ» (٢/٦٣٠).

و« كتاب الفقه » للشافعي بكماله ـ يعني الأم ـ و« تاريخ خليفة » و« طبقات خليفة » وكتاب « سيرة عمر بن عبد العزيز » لأحمد بن إبراهيم الدورقي . . . وليس لأحد مثل مسنده وكان ورعًا فاضلاً زاهداً . . . قد ظهرت له إجابات الدعوة في غير شيء .

[١٢] حسدهم لأبي القاسم البغوي عبد الله بن محمد بن عبد العزيز:

قال أبو يعلى الخليلي:

أبو القاسم البغوي من العلماء المعمرين سمع داود بن رشيد ، والحكم بن موسى . . .

وعنده مائة شيخ لم يشاركه أحد فيهم ، في آخر عمره لم ينزل إلى الشيوخ .

قال : وهو حافظ عارف صنف مسند عمه علي بن عبد العزيز وقد حسدوه في آخر عمره فتكلموا فيه بشيء لا يقدح فيه .

وقد سمعت عبد الرحمن بن محمد يقول : سمعت أبا أحمد الحاكم سمعت البغوي يقول : ورَّقْتُ لألف شيخ .

وقال أحمد بن علي السليماني الحافظ : البغوي يتهم بسرقة الحديث .اهـ.

قال الذهبي في «السير» (١٤/٤٥٥):

قلت : هذا القول مردود ، وما يتهم أبا القاسم أحدٌ يدري ما يقول : بل هو ثقة مطلقًا .

[١٣] حقد المأمون على أبي مسهر عبد الأعلى بن مسهر بن عبد الأعلى ابن مسهر:

قال الذهبي في «السير» (١٠/٢٢٣):

قال علي بن عثمان النفيلي : كنا على باب أبي مسهر جماعة من أصحاب الحديث فمرض فعدناه وقلنا : كيف أصبحت؟ ، قال : في عافية ، راضيًا عن الله

ساخطًا على ذي القرنين كيف لم يجعل سدًّا بيننا وبين أهل العراق كما جعله بين أهل خراسان وبين يأجوج ومأجوج؟! .

فما كان بعد هذا إلا يسيراً حتى وافى المأمون دمشق، ونزل «بدير مران»، وبنى القبة فوق الجبل فكان بالليل يأمر بجمرٍ عظيم فيوقد ويجعل في طسوت كبار تدلى من عند القبيبة بسلاسل وحبال فتضيء لها الغوطة فيبصرها بالليل.

وكان لأبي مسهر حلقة في الجامع بين العشاءين عند الحائط الشرقي، فبينا هو ليلة إذ قد دخل الجامع ضوء عظيم فقال أبو مسهر: ما هذا؟ .

قالوا: النار التي تدلى من الجبل لأمير المؤمنين حتى تضيء له الغوطة فقال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩)﴾ [الشعراء:١٢٨، ١٢٩] وكان في الحلقة صاحب خبر للمأمون فرفع ذلك للمأمون فحقدها عليه وكان قد بلغه أيضًا أنه على قضاء أبي العميطر، فلما رحل المأمون أمر بحمل أبي مسهر فامتحنه في الرقة في القرآن [١] .

قال الذهبي: قد كان المأمون بأسًا، وبلاءً على الإسلام.

[١٤] بعض ما وقع للإمام أحمد - رحمه الله - :

هو الإمام حقًّا وشيخ الإسلام صدقًا أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المروزي ثم البغدادي.

محنته مشهورة مزبورة مذكورة في كتب التواريخ والسير والتراجم علمها كثير من المسلمين وحفظ الله به الإسلام في تلك المحنة وهي القول بخلق القرآن ومعلوم لدى كل ذي لب أنه كلام الله غير مخلوق منه بدأ بلا كيفية قولاً ، ولكن وقعت الفتنة على الإمام أحمد في أيام المأمون ، وكان قد دعا الناس إلى القول بخلق القرآن ومن وراء ذلك فرقة الشر والوبال «المعتزلة» قبحهم الله ومن اعتقد

---

(١) أهو مخلوق أو كلام الله ؟ ، وأجاب أبو مسهر على تردد . انظر «تاريخ بغداد» (١١ / ٧٢، ٧٣).

اعتقادهم وعلى رأس أولئك ابن أبي دؤاد.

فامتنع أن يقول هذا القول فحرض ابن أبي دؤاد وغيره المأمون على الإمام أحمد حتى سجنه وضربه أشد ضرب وكنت أسمع منذ صغري وعوام بلدي يقولون: ضرب فلان فلانًا ضربًا حنبليًّا ويقال: «جلد حنبلي».

ولم أعرف معنى هذا إلا بعد أن عرفت السُّنَّة وعلمت هذه المسألة، والشاهد أن الحسد فيما يظهر لي لا يخلو منها فالإمام أحمد كان إمام عصره وفريد زمانه في خصال شتى وكان على استقامة مرضية، والكلام عن هذه المحنة يطول، يراجع لذلك «السير» (١١/ ٢٣٢) وما بعدها. و«مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي، و«تاريخ الإسلام» للذهبي، و«البداية والنهاية» لابن كثير وغيرها من المصادر الكثيرة التي تكلمت عن هذا.

[١٥] حسدهم لأبي عبد الله بن أبي كدية:

ابن أبي كدية هو: محمد بن عتيق بن محمد بن هبة الله [١].

قال الذهبي: الأصولي شيخ القراء.

قال ابن عقيل: هو شيخ هش حسن العارضة جاري العبارة حفظه متدين تذاكرنا فرأيته مملوءًا علمًا وحفظًا.

وجـــه الحسد:

قال أحمد بن شافع قال ابن ناصر وجماعة:

كان أصحاب القيرواني يشهدون عليه: أنه لا يصلي، ولا يغتسل من جنابة في أكثر أحواله ويرمى بالفسق مع المرد، واشتهر بذلك وادعى قراءة القرآن على ابن النفيس.

قال الذهبي بعد إيراده لهذا: هذا كلام بهوى.

---

(١) انظر «سير أعلام النبلاء» (١٩/ ٤١٧).

قلت: إنه الحسد يجعل الحاسد لا يدري ما يخرج من رأسه أهم شيء أن يوقع بالمحسود الضرر، نسأل الله السلامة.

[١٦] حسد الحسين بن علي الدمشقي:

الخطيب هو: أحمد بن علي بن ثابت حافظ ناقد مفتي أوحد عصره لم يكن بعد الدارقطني مثله.

قال محمد بن طاهر: حدثني مكي بن عبد السلام قال: كان سبب خروج الخطيب من «دمشق» إلى «صور» أنه كان يختلف إليه صبي مليح فتكلم الناس في ذلك.

وكان أمير البلد رافضيًّا متعصبًا فبلغته القصة فجعل ذلك سببًا إلى الفتك به فأمر صاحب شرطته أن يأخذ الخطيب بالليل فيقتله.

وكان صاحب الشرطة سيئًا فقصده تلك الليلة في جماعة ولم يمكنه أن يخالف الأمير فأخذه، وقال: قد أمرت فيك بكذا ولا أجد لك حيلة إلا أني أعبر بك عند دار الشريف بن أبي الجن فإذا حاذيت الدار اقفز وادخل دار الشريف، فأرسل الأمير إلى الشريف أن يبعث به فقال: أيها الأمير أنت تعرف اعتقادي فيه وفي أمثاله وليس في قتله مصلحة هذا مشهور بالعراق إن قتلته قتل جماعة من الشيعة وخربت المساجد، قال: فما ترى؟، قال: أرى أن ينزح من بلدك فأمر بإخراجه فراح إلى «صور» وبقي بها مدة [١].

قال أبو القاسم بن عساكر: سعي بالخطيب حسين بن علي الدمشقي إلى أمير الجيش فقال: هو ناصبي يروي فضائل الصحابة وفضائل العباس في الجامع.

[١٧] وشاة الحاسدين بابن رشد صاحب «بداية المجتهد»:

ابن رشد هو: محمد بن أبي القاسم أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، علامة وقته.

---

(١) انظر «السير» (١٨ / ٢٨١، ٢٨٢) و«تاريخ ابن عساكر».

قال الأبار: لم ينشأ بالأندلس مثله كمالاً وعلمًا وفضلاً متواضعًا منخفض الجناح.

يقال عنه: إنه ما ترك الاشتغال مذ عقل سوى ليلتين ليلة موت أبيه وليلة عرسه.

قال شيخ الشيوخ ابن حمويه: لما دخلت البلاد سألت عن ابن رشد، فقيل: إنه مهجور في بيته من جهة الخليفة يعقوب لا يدخل إليه أحد، لأنه رفعت عنه أقوال ردية ونسبت إليه العلوم المهجورة، ومات محبوسًا بداره «بمراكش» في أواخر سنة أربع [1]. يعني: أربع وتسعين وخمسمائة، وقيل: خمس.

[١٨] الحاسدون لعبد الغني بن عبد الواحد المقدسي صاحب «العمدة»:

هو عبد الغني بن عبد الواحد بن علي أبو محمد الجماعيلي الحنبلي عالم حافظ قدوة أثري متبع ابتلي وأوذي لصلابته في الحق وصدقه.

قال الحافظ الضياء:

كان الحافظ عبد الغني يقرأ الحديث «بدمشق» ويجتمع عليه الخلق فوقع الحسد، فشرعوا وعملوا لهم وقتًا لقراءة الحديث وجمعوا الناس فكان هذا ينام وهذا بلا قلب فما اشتفوا، فأمروا الناصح ابن الحنبلي بأن يعظ تحت النسر - من جامع «دمشق» - يوم الجمعة وقت جلوس الحافظ.

فأول ذلك أن الناصح والحافظ أرادا أن يختلفا الوقت فاتفقا أن الناصح يجلس بعد الصلاة وأن يجلس الحافظ العصر.

فدسوا إلى الناصح رجلاً ناقصًا ناقص العقل من بني عساكر فقال للناصح في المجلس ما معناه: إنك تقول الكذب على المنبر فضرب وهرب فتمت مكيدتهم، ومشوا إلى الوالي وقالوا: هؤلاء الحنابلة قصدهم الفتنة واعتقادهم يخالف اعتقادنا ونحو هذا ثم جمعوا كبراءهم ومضوا إلى القلعة إلى الوالي وقالوا:

---

(١) «السير» (٢١/٣٠٨، ٣٠٩).

نشتهي أن تحضر عبد الغني فانحدر إلى المدينة خالي الموفق وأخي الشمس البخاري وجماعة. وقالوا: نحن نناظرهم.

وقالوا للحافظ: لا تجيء فإنك حاد نحن نكفيك فاتفق أنهم أخذوا الحافظ وحده، ولم يدر أصحابنا فناظروه واحتدوا وكانوا قد كتبوا شيئًا من الاعتقاد، وكتبوا خطوطهم فيه وقالوا له: اكتب خطك فأبى، فقالوا للوالي: الفقهاء كلهم قد اتفقوا على شيء وهو يخالفهم، واستأذنوه في رفع منبره فبعث الأسرى فرفعوا ما في جامع دمشق من منبر وخزانة ودلابزين وقالوا: نريد ألا تجعل في الجامع إلا صلاة الشافعية وكسروا منبر الحافظ.

ومنعونا من الصلاة ففاتتنا صلاة الظهر ثم إن الناصح جمع البَنَوية وغيرهم وقالوا: إن لم يخلونا نصلي باختيارهم صلينا بغير اختيارهم فبلغ ذلك القاضي - وكان صاحب الفتنة - فأذن لهم، وحمى الحنفية بمقصورتهم بأجناد ثم إن الحافظ ضاق صدره ومضى إلى «بعلبك» فأقام بها مدة فقال له أهلها: إن اشتهيت جئنا معك إلى دمشق نؤذي من آذاك فقال: لا، وتوجه إلى مصر فبقي «بنابلس» مدة يقرأ الحديث، وكنت أنا بمصر، فجاء شاب من «دمشق» بفتاوى إلى صاحب مصر الملك العزيز ومعه كتب أن الحنابلة يقولون: كذا وكذا مما يشقون به عليهم.

فقال - وكان يتحيَّد -: إذا أصبحنا أخرجنا من بلادنا من يقول بهذه المقالة فاتفق أنه عدا به الفرس فشب به فسقط فخسف صدره، كذلك حدثني يوسف ابن الطفيل شيخنا وهو الذي غسله.

فأقيم ابنه صبي فجاء الأفضل من صَرْخَد وأخذ «مصر» وعسكر وكر إلى «دمشق»، فلقي الحافظ عبد الغني في الطريق فأكرمه إكرامًا كثيرًا.

ونفذ يوصي به «بمصر» فتلقى الحافظ بالإكرام.

وأقام بها يسمع الحديث بمواضع وكان بها كثير من المخالفين.

وحصر الأفضل « دمشق »حصاراً شديداً ثم رجع إلى « مصر» فصار العادل عمه خلفه فتملك « مصر» وأقام.

وكثر المخالفون على الحافظ « بمصر»، وهم ينالون منه حتى عزم الملك الكامل على إخراجه [وكان أشعريًّا جلداً]، واعتقل في دار أسبوعًا.

فسمعت أبا موسى يقول سمعت أبي يقول: ما وجدت راحة في « مصر» مثل تلك الليالي.

قال: وكانت امرأة في دار إلى جانب تلك الدار فسمعتها تبكي وتقول: « بالسر الذي أودعته قلب موسى حتى قوي على حمل كلامك».

قال: فدعوت به فخلصت تلك الليلة.

سمعت أحمد بن محمد بن عبد الغني، حدثني الشجاع بن أبي زكريا الأمير قال: قال لي الملك الكامل يومًا ها هنا فقيه قالوا: إنه كافر، . قلت: لا أعرفه قال: بلى هو محدث، قلت: لعله الحافظ عبد الغني. قال: هذا هو. فقلت: أيها الأمير العلماء أحدهم يطلب الآخرة وآخر يطلب الدنيا، وأنت هنا باب الدنيا فهذا الرجل جاء إليك أو تشفع يطلب شيئًا. قال: لا. فقلت: هذا الرجل أرفع العلماء كما أنت أرفع الناس فقال: جزاك الله خيراً كما عرفتني.

ثم بعثت رقعة إليه أوصيه به، فطلبني فجئت وإذا عنده شيخ الشيوخ ابن حمويه، وعز الدين الزبخاري.

فقال لي السلطان: نحن في أمر الحافظ فقال: أيها الملك القوم يحسدونه وهذا الشيخ بيننا ـ يعني شيخ الشيوخ ـ وحلفته هل سمعت من الحافظ كلامًا يخرج عن الإسلام؟

فقال: لا والله وما سمعت عنه إلا كل جميل، وتكلم ابن الزبخاري فمدح الحافظ كثيراً، وتلامذته وقال: أنا أعرفهم، ما رأيت مثلهم.

فقلت: وأنا أقول شيئًا آخر لا يصل إليه مكروه حتى يقتل من الأكراد ثلاثة ألاف قال: فقال: لا يؤذى الحافظ فقلت: اكتب خطك بذلك فكتب.

وسمعت بعض أصحابنا يقول: إن الحافظ أمر أن يكتب اعتقاده فكتب: أقول كذا، وأقول كذا لقول الله كذا ولقول النبي ﷺ كذا حتى فرغ من المسائل التي يخالفون فيها فلما رآها الكامل قال: ايش أقول في هذا يقول بقول الله وقول رسوله ﷺ؟.

قال الذهبي: وذكر أبو المظفر الواعظ في «مرآة الزمان» قال: كان الحافظ عبد الغني يقرأ الحديث بعد الجمعة قال: فاجتمع القاضي محي الدين والخطيب ضياء الدين وجماعة فصعدوا إلى القلعة وقالوا لواليها: هذا قد أضل الناس ويقول بالتشبيه فعقدوا له مجلسًا فناظرهم فأخذوا عليه مواضع منها قوله: لا أنزهه تنزيهًا ينفي حقيقة النزول.

ومنها: «كان الله ولا مكان وليس هو اليوم على ما كان».

ومنها: مسألة الحرف والصوت فقالوا: إذًا لم يكن على ما كان فقد أثبت له المكان وإذا لم تنزهه عن حقيقة النزول فقد جوزت عليه الانتقال، وأما الحرف والصوت فلم يصح عن إمامك - يعني أحمد بن حنبل - وإنما قال: إنه كلام الله يعني غير مخلوق، وارتفعت الأصوات فقال والي القلعة الصارم برغش كل هؤلاء على ضلالة وأنت على الحق؟ قال: نعم فأمر بكسر منبره.

قال: وخرج الحافظ إلى «بعلبك» ثم سافر إلى «مصر» إلى أن قال: فأفتى فقهاء مصر بإباحة دمه، وقالوا: يفسد عقائد الناس ويذكر التجسيم فكتب الوزير بنفيه إلى المغرب فمات الحافظ قبل وصول الكتاب»[1].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢١/٤٥٩-٤٦٣).

[١٩] الحاسدون لشيخ الإسلام الإمام ابن تيمية عليه -رحمه الله تعالى-:

شيخ الإسلام هو: الإمام الرباني إمام الأئمة ومفتي الأمة وبحر العلوم وسيد الحفاظ وفارس المعاني والألفاظ فريد العصر وقريع الدهر علامة الزمان وترجمان القرآن علم الزهاد وأوحد العباد قامع المبتدعين وإمام المجتهدين أبو العباس أحمد ابن عبد الحليم بن عبد السلام أبي البركات الحراني نزيل دمشق[١] .

قال ابن سيد الناس بعد أن ذكر أبا الحجاج المزي:

وبعد الذي هداني على رؤية الشيخ الإمام شيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية فألفيته ممن أدرك العلوم خطًّا وكاد يستوعب السُنن والآثار حفظًا.

- إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته.
- أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته.
- أو ذاكر بالحديث فهو صاحب علمه وذو رايته.
- أو ذاكر بالنِّحل والملل لم يُر أوسع من نحلته في ذلك ولا أرفع من درايته برز في كل فن على أبناء جنسه ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه.

كان يتكلم في التفسير فيحضر مجلسه الجم الغفير، ويرون من بحر علومه العذب النمير، ويرتقون من ربيع فضله في روضة وغدير إلى أن دب إليه من أهل بلاده داء الحسد وأكب أهل النظر منهم على ما ينقد عليه من أمور المعتقد فحفظوا عنه في ذلك كلامًا أوسموه بسببه ملامًا وفوقوا لتبديعه سهامًا وزعموا أنه خالف طريقهم وفرق فريقهم فنازعهم ونازعوه ، وقاطع بعضهم وقاطعوه ، ثم نازع طائفة أخرى ينتسبون إلى الفقر إلى طريقه ، ويزعمون أنهم على أدق باطن منها وأجلى حقيقة، فكشف تلك الطرائق وذكر لها على ما زعم - بوائق

---

(١) «طبقات علماء الحديث» (٤/ ٢٧٩، ٢٨٠) لابن عبد الهادي.

فاضت إلى الطائفة الأولى من منازعيه واستعانت بذوي الظعن عليه من مقاطعيه، فوصلوا بالأمراء أمره وأعمل منهم في كفره فكره، فوثبوا محاضر، وألّبوا الرويبضة [١] للسعي بها بين الأكابر وسعوا في نقله إلى حضرة المملكة بالديار المصرية فنقل وأودع السجن ساعة حضوره واعتقل، وعقدوا لإراقة دمه مجالس، وحشدوا لذلك قومًا من عمار الزوايا وسكان المدارس من مجامل في المنازعة مخاتل في المخادعة، ومن مجاهر بالتكفير مبارز بالمقاطعة يسومونه ريب المنون ﴿وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴿٦٩﴾﴾ [القصص:٦٩].

وليس المجاهر كفره بأسوأ حالاً من المخاتل، وقد دبت إليه عقارب مكره فرد الله كيد كلٍّ في نحره ونجاه على يد من اصطفاه والله غالب على أمره.

ثم لم يخل بعد ذلك من فتنة بعد فتنة ولم ينتقل طول عمره من محنة إلا إلى محنة إلى أن فوض أمره لبعض القضاة فتقلد ما تقلد من اعتقاله ولم يزل بمحبسه ذلك إلى حين ذهابه إلى رحمة الله تعالى وانتقاله، وإلى الله ترجع الأمور وهو المطلع على خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وكان يومه مشهوداً ضاقت بجنازته الطريق وانتابها المسلمون من كل فج عميق يتبركون بمشهده يوم يقوم الأشهاد، ويتمسكون بشرجعه [٢]، حتى كسروا تلك الأعواد [٣] اهـ.

توفي رحمه الله ليلة الإثنين (٢٠ / ذي القعدة ٧٢٨هـ) وما أوذي به شيخ الإسلام كثيرٌ جداً يراجع لذلك كتاب «العقود الدرية» لابن عبد الهادي رحمهما الله جميعًا.

[٢٠] الحاسدون لابن دقيق العيد وكتابه «الإمام»:

ابن دقيق العيد هو: علي بن وهب بن مطيع أبو الفتح القشيري إمام مجتهد ومحدث فقيه أصولي علامة، برز في فنون كثيرة ومن قرأ كتبه علم ذلك.

---

(١) الرجل التافه «اللسان» مادة «ربض».

(٢) هو السرير الذي تحمل عليه الجنازة «اللسان» مادة «شرجع».

(٣) «طبقات علماء الحديث» (٤ / ٢٩٠، ٢٩١).

فمن المكايد التي حصلت لهذا الإمام ما ذكره الأسنوي في «طبقات الشافعية» (٢ / ٢٢٩) حيث قال: «وكان ـ رحمه الله ـ قد أكمل كتابه الكبير العظيم الشأن المسمى بـ«الإمام» بهمزة مكسورة بعدها ميم، هو الذي استخرج منه كتابه المختصر المسمى بـ«الإلمام» بزيادة اللام ـ فحسده عليه بعض كبار هذا الشأن ممن في نفسه منه عداوة فدس من سرق أكثر هذه الأجزاء وأعدمها وبقي منه الموجود عند الناس اليوم وهو نحو أربعة أجزاء، فلا حول ولا قوة إلا بالله كذا سمعته من الشيخ شمس الدين ابن عدلان ـ رحمه الله ـ وكان عارفًا بحاله».

[٢١] حسد اليهودي للمسلمين في إمامة المازري:

المازري هو: الإمام العلامة البحر المتفتن أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر ابن محمد التميمي المازري المالكي.

ذكر الذهبي: أنه مرض مرضة فلم يجد من يعالجه إلا يهودي فلما عوفي على يده قال: لولا التزامي بحفظ صناعتي لأعدمتك المسلمين.

فأثر هذا عند المازري فأقبل على تعلُّم الطب حتى فاق فيه وكان ممن يفتي فيه كما يفتي في الفقه [١].

حسد علي بن يوسف بن تاشفين على ابن العريف:

ابن العريف هو: الإمام الزاهد العارف أبو العباس أحمد بن موسى الصنهاجي.

كان الناس قد ازدحموا عليه يسمعون كلامه ومواعظه فخاف ابن تاشفين سلطان الوقت من ظهوره وظن أنه من أنموذج ابن تومرت فيقال: إنه قتله سرًّا فسقاه... ، والله أعلم [٢].

قال ابن مسدي: ابن العريف ممن ضرب عليه الكمال رواق التعريف، فأشرقت بأضرابه البلاد وشرقت به جماعة الحساد حتى سعوا به إلى سلطان عصره

---

(١) «السير» (٢٠/١٠٥، ١٠٦).

(٢) «السير» (٢٠/١١٢، ١١٣).

وخوفوه من عاقبة أمره لاشتمال القلوب عليه وانضواء الغرباء إليه فغرب إلى مراكش فيقال: إنه سُمَّ، وتوفي شهيداً.

وكان لما احتمل إلى مراكش استوحش ففرق في البحر جميع مؤلفاته فلم يبق منها إلا ما كتبت منها عنه.

قال ابن بشكوال: احتفل الناس بجنازته وندم السلطان على ما كان منه في جانبه فظهر له كرامات رحمه الله [١].

[٢٢] الحسد لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري الخرساني:

قال الذهبي في «السير» (١٨/٢٣١):

قال عبد الغفار بن إسماعيل: «ومن جملة أحوال أبي القاسم ما خص به من المحنة في الدين، وظهور التعصب بين الفريقين في عشر سنين أربعين وأربعمائة إلى سنة خمس وخمسين، وميل بعض الولاة إلى الأهواء وسعي بعض الرؤساء إليه بالتخليط، حتى أدى ذلك إلى رفع المجالس، وتفرق شمل الأصحاب، وكان هو المقصود من بينهم حسداً، حتى اضطر إلى مفارقة الوطن، وامتد في أثناء ذلك إلى بغداد، فورد على القائم بأمر الله، ولقي قبولاً وعقد له المجلس في مجالسه المختصة به، وكان ذلك بمحضر ومرأى منه، وخرج الأمر بإعزازه وإكرامه فعاد إلى «نيسابور»، وكان يختلف منها إلى «طوس» بأهله حتى طلع صبح الدولة البارسلانيَّة فبقي عشر سنين محترماً معظماً» [٢].

ومن نظمه:

بقي وقت كنت أخلو بوجهكم ... ونفر الهوى في روضة الأنس ضاحك
أقمت زماناً والعيون قريرة ... وأصبحت يوماً والجفون سوافك

---

(١) «السير» (٢٠/١١٣، ١١٤).

(٢) وانظر «تبين كذب المفتري» (ص٢٧٤، ٢٧٥) و«طبقات الشافعية» للسبكي (٥/١٥٧، ١٥٨).

[٢٣] حسدهم للإمام محمد بن إبراهيم الوزير:

هو: الإمام إمام أئمة الاجتهاد من دون منازع مجدد زمانه وحامل لواء محاربة التقليد من دون لين ولا هوادة إمام في علم القرآن والسُّنَّة والعربية والفقه فريد عصره ونادرة من نوادر دهره محمد بن إبراهيم بن علي ، يصل نسبه إلى الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم [١] .

قال الشوكاني عنه : « لو قلت : إن اليمن لم تنجب مثله لم أبعد عن الصواب » .

فهذا العلم ما إن تمكن من معرفة علوم الاجتهاد علمًا علمًا وصار مبرزًا فيها كلها حتى تأكد له أنها لا تكفي وحدها لنيل سعادة الدارين الأولى والأخرى وأنه لا بد لمن يريد أن ينال هذه السعادة أن يتجه إلى علوم القرآن المجيد ، والسُّنَّة النبوية التي هي أولى بالاهتمام وأجدر بالاتباع فتحول إليها بتوفيق من الله وهدايته وهو ما أشار إلى ذلك بقوله : فرجعت إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ، وقلت : لا بد أن تكون فيهما براهين وردود على مخالفي الإسلام، وتعليم وإرشاد لمن اتبع الرسول عليه الصلاة والسلام ، فتدبرت ذلك فوجدت الشفاء كله دقِّه وجله وانشرح صدري وصلُح أمري وزال ما كنت به من مبتلى ، وقد بلغ من معرفته السُّنَّة وعلومها ما جعله أبرز علمائها على الإطلاق فتحول عن مذهبه الزيدي، الذي نشأ عليه وترعرع إلى إيثار العمل بأدلة الكتاب وصحيح السُّنَّة نابذًا التقليد وراء ظهره وداعيًا غيره إلى إطراح أقوال الرجال التي ليس عليها أثاره من علم والرجوع إلى مصدر الهداية الربانية كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ ، فما كان من علماء عصره المقلدين ـ ولاسيما ـ شيخه علي بن محمد بن أبي القاسم إلا أن ناصبوه العداء وأشهروا عليه القدح والتجريح كما وصف ذلك في قوله : « هذا وإني لما تمسّكت بعروة السنن الوثيقة وسلكت سُنن الطريقة العتيقة تناولتني الألسنة البذيئة من أعداء السُّنَّة النبوية ونسبوني إلى دعوى في العلم

---

(١) انظر « البدر الطالع » (٢ / ٨١) و « هجر العلم ومعاقله » (ص١٣٦٧) .

كبيرة وأمور غير ذلك كثيرة حرصًا على أن لا يتبع ما دعوت إليه بسند سيد المرسلين والخلفاء الراشدين والسلف الصالحين فصبرت على الأذى وعلمت أن الناس ما زالوا هكذا.

مـــا سلـم الله من بريتـــه ولا نبي الهـــدى فـــيكف أنا

وقد اعترض عليه شيخه علي بن محمد بن أبي القاسم لما ورد في قصيدته الدالية التي أولها:

ظلت عـواذله تروح وتفـتـدي وتريد تعنيف المحب وتبـتـدي

لما جاء فيها بمثل قوله:

ديني كـأهل البـيت دينًا قـيـمًـا مـتنزهًا عن كل مـعـتـقـد ردي

بينما هو في واقع الحال مخالف عملاً لما في هذا البيت فهو في اعتقاد شيخه قد خالف (أهل البيت) في كثير من المعتقدات، كما خالفهم أيضًا في مسائل فرعية وقد تصدى للدفاع عنه أخوه الهادي:

«ولم يقتنع علي بن محمد بن أبي القاسم بما أورده الهادي من حجج مقنعة في الدفاع عن أخيه بل أصر على موقفه المتشدد من تلميذه محمد بن إبراهيم الوزير لزعمه أنه في اعتقاده قد اقترف بتحوله من مذهبه إلى علوم السُّنَّة ذنبًا لا يغفر مع أنه كان يثني عليه من قبل ثناءً عاطرًا وينصح طلبة العلم فيمن فيهم ابنه بأن يأخذوا العلم عنه ،ولكنه تغير تغيرًا عجيبًا وتحول من مادح إلى قادح مما حمل تلميذه المذكور على أن يخاطبه بهذه الأبيات:

عـــرفت قـــدري ثم أنكرته فـــمـــا عـــد الله مما بدا
في كل يوم لي بك مـــوقف أسـرفت بالقـول بسـوء البـدا
أمس الثناء واليـوم سـوء الأذى يا ليت شعري كيف تضحى غدا
يا شـيـبـة العـتـرة في وقـتـه ومنصب التـعليم والاقـتـدا
قـد خلع العلم رداء الهـدى عليك والشـيب رداء الردى
فـصن رداءيك وطهـرهـمـا عن دنس الإسـراف والاعـتـدا

ولكن هذا العتب الجميل لم يغير موقف شيخه نحوه في قليل ولا كثير وظلَّ معاديًا له ولم يكتف بهذا فحسب بل حبَّر إليه رسالة سنة ٨٠٨هـ أفرغ فيها ما شاء فيها هواه فانتقده نقداً مريراً وجرحه وتناول أئمة الإسلام بالقدح والذم فما كان من محمد بن إبراهيم الوزير إلا أن شمر عن ساعديه وكتب مؤلفه العظيم: «العواصم والقواصم في الذب عن سُنَّة أبي القاسم».

[٢٤] المحن التي وقعت لمحمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني بسبب الحسادين له وللسُنة:

هو: الإمام الكبير المجتهد المطلق العامل بالكتاب والسُّنَّة بيِّن طهور المنيعة المصنف العلامة: محمد بن إسماعيل بن صلاح، يصل نسبه إلى الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنهم.

قال الشوكاني في «البدر الطالع» (٢/١٣٣-١٣٧):

«جرت له مع أهل عصره خطوب ومحن منها في أيام المتوكل على الله القاسم ابن الحسين ثم في أيام ولده الإمام المنصور بالله الحسين بن القاسم ثم في أيام ولد الإمام المهدي العباس بن الحسين وتجمّع العوام لقتله مرة بعد أخرى وحفظه الله من مكرهم وكيدهم وكفاه شرهم، وولاه الإمام المنصور بالله الخطابة بجامع «صنعاء» فاستمر كذلك إلى أيام ولده الإمام المهدي».

واتفق في بعض الجمع أنه لم يذكر الأئمة الذين جرت العادة بذكرهم في الخطبة الأخرى فثار عليه جماعة من آل الإمام الذين لا أنه لهم بالعلم وعضدهم جماعة من العوام وتواعدوا فيما بينهم على قتله في المنبر يوم الجمعة المقبلة وكان من أعظم المحشدين لذلك السيد يوسف العجمي الإمامي القادم في أيام الإمام المنصور بالله والمدرس بحضرته فبلغ الإمام المهدي ما قد وقع التواطؤ عليه فأرسل لجماعة من أكابر آل الإمام وسجنهم وأرسل أيضًا لصاحب الترجمة وسجنه، وأمر من يطرد السيد يوسف المذكور حتى يخرجه من الديار اليمنية فسكنت

عند ذلك الفتنة وبقي صاحب الترجمة نحو شهرين ثم خرج من السجن وولي الخطابة غيره واستمر ناشراً للعلم تدريساً وافتاءً وتصنيفاً وما زال في محن من أهل عصره.

وكانت العامة ترميه بالنصب مستدلين بذلك بكونه عاكفاً على الأمهات وسائر كتب الحديث عاملاً بما فيها ومن صنع هذا الصنع رمته العامة بذلك لاسيما إذا تظاهر بفعل شيء من سنن الصلاة كرفع اليدين وضمهما ونحو ذلك فإنهم ينفرون عنه ويعادونه ولا يقيمون له وزناً مع أنهم في جميع هذه الديار منتسبون إلى الإمام زيد بن علي وهم من القائلين بمشروعية الضم وكذلك ما زال الأئمة من الزيدية يقرءون كتب الحديث الأمهات وغيرها منذ خرجت إلى اليمن ونقلوها في مصنفاتهم الأول فالأول لا ينكره إلا جاهل أو متجاهل.

وليس الذنب في معاداة من كان كذلك للعامة الذين لا تعلق لهم بشيء من المعارف العلمية فإنهم أتباع كل ناعق إذا قال لهم من له هيئة أهل العلم أن هذا الأمر حق قالوا: حق وإن قال: باطل، قالوا: باطل إنما الذنب لجماعة قرءوا شيئاً من كتب الفقه ولم يمعنوا فيها ولا عرفوا غيرها فظنوا لقصورهم أن المخالفة لشيء منها مخالفة للشريعة بل القطعي من قطعياتها مع أنهم يقرءون في تلك الكتب مخالفة أكابر الأئمة وأصاغرهم لما هو مختار لمصنفها ولكن لا يعقلون حقيقة ولا يهتدون إلى طريقة بل إذا بلغ بعض معاصريهم إلى رتبة الاجتهاد وخالف شيئاً باجتهاده جعلوه خارجاً عن الدين.

والغالب عليهم أن ذلك ليس لمقاصد دينية بل لمنافع دنيوية تظهر لمن تأملها وهي أن يشيع في الناس أن من أنكر على أكابر العلماء ما خالف المذهب من اجتهاداتهم كان من خلص الشيعة الذابين عن مذهب الآل وتكون تلك الشهرة مفيدة في الغالب لشيء من منافع الدنيا وفوائدها فلا يزالون قائمين وثائرين في تخطئه أكابر العلماء وزميهم بالنصب ومخالفة أهل البيت فتسمع ذلك العامة

فتظنه حقًّا وتعظم ذلك المنكر، لأنه قد نفق على عقولها صدق قوله وظنوه من المحامين عن مذهب الأئمة من أهل البيت بل الخارج عن إجماعهم لأنهم جميعًا حرموا التقليد على من بلغ رتبة الاجتهاد وأوجبوا عليه أن يجتهد رأي نفسه ولم يخصوا بذلك مسألة دون مسألة ، ولكن المتعصب أعمى والمقصر لا يهتدي إلى صواب ولا يخرج عن معتقده ، إلا إذا كان من ذوي الألباب مع أن مسألة تحريم التقليد على المجتهد هي محررة في الكتاتيب ، التي هي مدارس صغار الطلبة فضلاً عن كبارهم بل هي فيها أو في بحث من مباحثها يتلقنها الصبيان وهم في الكُتَّاب .

(ومن) جملة ما اتفق لصاحب الترجمة من الامتحانات أنه لما شاع في العامة ما شاع عنه بلغ ذلك أهل جبل برط من ذوي محمد وذوي حسين وهم إذ ذاك جمرة اليمن الذين لا يقوم لهم قائم فاجتمع أكابرهم ومن أعظم رؤسائهم حسن ابن محمد العنسي البرطي وخرجوا على الإمام المهدي في جيوش عظيمة ووصلت منهم الكتب أنهم خارجون لنصرة المذهب وأن صاحب الترجمة قد كاد يهدمه وأن الإمام مساعد له على ذلك فترسل لهم العلماء الذين لهم خبرة في الحق وأهله ورتبة في العلم فما أفاد ذلك.

وآخر الأمر جعل لهم الإمام زيادة في مقرراتهم قيل إنها نحو عشرين ألف قرش في كل عام فعادوا إلى ديارهم وتركوا الخروج؛ لأنه لا مطمع لهم في غير الدنيا ولا يعرفون من الدين إلا رسومًا بل يخالفون ما هو من القطعيات كقطع ميراث النساء والتحاكم إلى الطاغوت واستحلال الدماء والأموال وليسوا من الدين في ورد ولا صدر.

ومن محن الدنيا أن هؤلاء الأشرار يدخلون «صنعاء» لمقررات لهم في كل سنة ، ويجتمع منهم ألوف مؤلفة فإذا رأوا من يعمل باجتهاده في الصلاة كأن يرفع يديه أو يضمهما إلى صدره أو يتورك ، أنكروا ذلك عليه وقد تحدث بسبب ذلك فتنة.

ويتجمعون ويذهبون إلى المساجد التي تقرأ فيها كتب الحديث على عالم من العلماء فيثيرون الفتن وكل ذلك بسبب شياطين الفقهاء الذين قدمنا ذكرهم وأما هؤلاء الأعراب الجفاة فأكثرهم لا يصلي ولا يصوم ولا يقوم بفرض من فروض الإسلام سوى الشهادتين على ما في لفظه بهما من عوج.

واتفق في الشهر الذي حددت في الترجمة أنه دخل جماعة منهم وفيهم عجب وتيه واستخفاف بأهل «صنعاء» على عادتهم وقد كانوا نبهوا في الطرقات فوصلوا إلى باب مولانا الإمام حفظه الله فرأى رجل بقرة لهم معهم فرام أخذها فسلّ من هي معه من أهل بكيل السلاح على ذلك الذي رام أخذ بقرته فثار عليهم أهل «صنعاء» الذين كانوا مجتمعين في باب الخليفة وهم جماعة قليلون من العوام وهؤلاء نحو أربعمائة فوقع الرجم لهؤلاء من العامة ثم بعد ذلك أخذوا ما معهم من الجمال التي يملكونها وكذلك سائر دوابهم فضلاً عن الدواب التي نهبوها على المسلمين وأكثر بنادقهم وسائر سلاحهم، وقتلوا منهم نحو أربعة أنفار وجنوا على جماعة منهم وما وسعهم إلا الفرار إلى المساجد وإلى محلات قضاء الحاجة ولولا أن الخليفة بادر بزجر العامة عند ثوران الفتنة لما تركوا منهم أحداً، وصاروا الآن في ذلة عظيمة زادهم الله ذلة وقلل عددهم.

وقد كان أكثر أتباع صاحب الترجمة من الخاصة والعامة وعملوا باجتهاده وتظاهروا بذلك وقرءوا عليه كتب الحديث وفهّم جماعة من الأجناد بل كان الإمام المهدي يعجبه التظاهر بذلك وكذلك وزيره الكبير الفقيه أحمد بن علي النهمي وأميره الكبير الماس المهدي وما زال ناشراً لذلك في الخاصة والعامة غير مبال بما يتوعده به المخالفون له ووقعت في أثناء ذلك فتن كبار وقاه الله شرها.

[٢٥] الحسد الذي حصل للإمام الشوكاني:

هو: إمام المجتهدين في عصره وناشر السُّنَّة في زمانه، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني.

كان مبرزاً في علوم كثيرة لاسيما علوم السُّنَّة والتفسير والفقه فروعه وأصوله [١].

وأنقلك إلى الإمام الشوكاني ليذكر لك بعض حوادث الحساد وغيرهم له ولدعوته عليه رحمة الله تعالى، قال في «أدب الطلب ومنتهى الإرب» (ص٩٨-١٠٥):

«وإني أخبرك أيها الطالب عن نفسي وعن الحوادث الجارية بيني وبين أهل عصري ليزداد يقينك وتكون على بصيرة فيما أرشدتك إليه.

اعلم أني كنت عند شروعي في الطلب في الصفة التي ذكرتها لك سابقًا ثم كنت بعد التمكن من البحث عن الدليل والنظر في مجاميعه أذكر في مجالس شيوخي ومواقف تدريسهم وعند الاجتماع بأهل العلم ما قد عرفته من ذلك لاسيما عند الكلام في الشيء من الرأي مخالف الدليل أو عند ورود قول عالم من أهل العلم قد تمسك بدليل ضعيف وترك الدليل القوي.

أو آخذ بدليل عام وبعمل خاص أو بمطلق وطرح المقيد أو بمجمل ولم يعرف المبين أو بمنسوخ ولم يتنبه للناسخ أو بأول ولم يعرف بآخر أو بمحض رأي ولم يبلغه في تلك المسألة دليلاً يتحين عليه العمل به فكنت إذا سمعت بشيء من هذا لا سيما في مواقف المتعصبين ومجامع الجامدين تكلمت بما بلغت إليه مقدرتي وأقل الأحوال أن أقول: استدل هذا بكذا وفلان المخالف له بكذا ودليل فلان أرجح لكذا فما زال أسرى التقليد يستنكرون ذلك ويستعظمونه لعدم الفهم به وقبول طبائعهم له حتى ولّد في قلوبهم من العداوة والبغضاء ما الله به عليم.

ثم كنت إذا فرغت من أخذ فن من الفنون أو مصنف من المصنفات على شيوخي أقبل جماعة من الطلبة إليّ وعوّلوا عليّ في تدريسهم في ذلك [٢]، فكان يأخذ أترابي شيئًا من الحسد الذي لا يخلو عنه إلا القليل ثم تكاثر الطلبة عليّ في علوم الاجتهاد وغيرها.

---

(١) «هجر العلم ومعاقله» (ص٢٢٥١).

(٢) راجع «البدر الطالع» (٢/٢١٩).

وأخذوا عني أخذاً خالياً عن التعصب سالماً من الاعتساف فكنت أقرر لهم دليل كل مسألة وأوضح لهم الراجح فيها وأصرح لهم بوجوب المصير إلى ذلك وكانوا قد تمرنوا وعرفوا علوم الاجتهاد وذهب عنهم ما تكدرت به فطرهم من المغيرات فزاد ذلك المخالفين عداوة وشناعة وحسداً وبغضاً وأطلقوا ألسنتهم بذلك وكان مع ذلك ترد إليّ أبحاث من جماعة من أهل العلم الساكنين «بصنعاء» وغيرهم من أهل البلاد البعيدة والمدائن النائية فأحرر الجوابات عليهم في رسائل مستقلة ويرغب تلامذتي لتحصيل ذلك وتنتشر في الناس فإذا وقف عليه المتعصبون ورأوه يخالف ما يعتقدون استشاطوا غضباً وعرضوا ذلك على من يرجون منه الموافقة والمساعدة، فمن ثالب بلسانه ومعترض بقلمه وأنا مصمّم على ما أنا فيه لا أنثني عنه ولا أميل عن الطريقة التي أنا فيها وكثيراً ما يرفعون ذلك إلى من لا عنده علم من رؤساء الدولة الذين لهم في الناس شهرة وصولة فكان في كل حين يبلغني من ذلك العجب ويناصحني من يظهر لي المودة ومن لا تخفى عليه حقيقة ما أقوله وحقيقته مع اعترافهم بأن ما أسلكه هو ما أخذه الله على الذين حملوا الحجة لكنهم يتعللون بأن الواجب يسقط بدون ذلك ويذكرون أحوال أهل الزمان وما هم عليه وما يخشونه من العواقب فلا أرفع لذلك رأساً ولا أعوّل عليه وكنت أتصوّر في نفسي أن هؤلاء الذين يتعصبون عليّ ويشغلون أنفسهم بذكري والحط عليّ هم أحد رجلين: إما جاهل لا يدري أنه جاهل ولا يهتدي بالهداية ولا يعرف الصواب وهذا لا يعبأ الله به.

أو رجل متميز له حظ من علم وحصّة من فهم لكنه قد أعمى بصيرته الحسدُ، وذهب بإنصافه حب الجاه وهذا لا ينجع فيه الدواء، ولا تنفع عنده المحاسنة، ولا يؤثر فيه شيء فما زلت على ذلك وأنا أجد المنفعة بما يصنعونه أكثر من المضرة والمصلحة العائدة على ما أنا فيه بما هم فيه أكثر من المفسدة.

ولقد اشتد بلاؤهم وتفاقمت محنتهم في بعض الواقعات فقاموا قومة

شيطانية وصالوا صولة جاهلية وذلك أنه ورد إليّ سؤال في شأن من يقع من كثير من المقصرين من الذم لجماعة من الصحابة صانهم الله وغضبت على من ينتهك أعراضهم المصونة فأجبت برسالة [١] ذكرت فيها ما كان عليه أئمة الزيدية من أهل البيت وغيرهم ونقلت إجماعهم من طرق وذكرت كلمات قالها جماعة من أكابر الأئمة وظننت أن نقل إجماع أهل العلم يرفع عنهم العماية ويردهم عن طرق الغواية فقاموا بأجمعهم وحرروا جوابات زيادة على عشرين رسالة [٢] مشتملة على الشتم والمعارضة بما لا يتفق إلا على بهيمة واشتغلوا بتحرير ذلك ، وأشاعوه عند العامة ولم يجدوا عند الخاصة إلا الموافقة تقية لشرهم وفراراً من مكرهم وزاد الشر وتفاقم حتى أبلغوا ذلك إلى أرباب الدولة والمخالطين للملوك من الوزراء وغيرهم وأبلغوه إلى مقام خليفة العصر [٣] حفظه الله وعظم القضية جماعة ممن يتصل به فمنهم من يشير عليه بحبسي ومنهم من ينتصح له بإخراجي من وطني وهو ساكت لا يلتفت إلى شيء من ذلك ، وقاية من الله وحماية لأهل العلم ومدافعة عن القائمين بالحجة في عباده ولم تكن لي إذ ذاك مداخلة لأحد من أرباب الدولة . ولا اتصال بهم [٤] .

واشتد لهج الناس بهذه القضية وجعلوها حديثهم في مجامعهم وكان من بيني وبينهم مودة يشيرون عليّ بالفرار أو الاستتار وأجمع رأيهم على أني إذا لم أساعدهم على أحد الأمرين فلا أعود إلى مجالس التدريس التي كنت أدرس في جامع «صنعاء» فنظرت إلى ما عند تلامذتي فوجدت أنفسهم قوية ورغبتهم في التدريس شديدة إلا القليل منهم فقد كادوا يستترون من الخوف ويفرون من

---

(١) هي رسالته المسماة «إرشاد الغبي إلى مذهب أهل البيت في صحب النبي» (مخطوطة) ذكر المؤلف في «البدر الطالع» (١/٢٣٤) أنه ألفها سنة ١٢٠٨ هـ.

(٢) جمعت في كتاب بعنوان «إظهار الخبى».

(٣) هو المنصور علي بن العباس حكم اليمن من سنة (١١٨٩-١٢٢٤هـ) انظر ترجمته في «البدر الطالع» (١/٤٥٩-٤٦٧).

(٤) كان المؤلف قبل توليه القضاء عام ١٢٠٩ هـ ، متفرغًا للعلم تفرُّغًا تامًّا مبتعد عن رجال السياسة انظر «البدر الطالع» (٢/٢٢٤).

الفزع فلم أجد لي رخصة في البعد عن مجالس التدريس وعدت وكان أول درس عاودته عند وصولي إلى الجامع في أصول الفقه بين العشاءين.

فانقلب من بالجامع وتركوا ما هم فيه من الدرس والتدريس ووقفوا ينظرون إليّ متعجبين من الإقدام على ذلك لما قد تقدر عندهم من عظم الأمر وكثرة التهويل والوعيد والترهيب ، حتى ظنوا أنه لا يمكن البقاء في «صنعاء» فضلاً عن المعاودة للتدريس ، ثم وصل في حال ذلك الدرس جماعة لم تجر لهم عادة بالوصول إلى الجامع ،وهم متلفعون بثيابهم لا يعرفون وكانوا ينظرون إليّ ويقفون قليلاً ثم يذهبون ويأتي آخرون ، حتى لم يبق شك مع أحد أنها إن لم تحصل فتنة في الحال وقعت مع خروجي من الجامع فخرجت من الجامع وهم واقفون على مواضع من طريقي فما سمعت من أحد منهم كلمة فضلاً عن غير ذلك.

وعاودت الدروس كلها وتكاثر الطلبة المتميزون زيادة على ما كانوا عليه في كل فن وقد كانوا ظنوا أنه لا يستطيع أحد أن يقف بين يدي مخافة على أنفسهم من الدولة والعامة فكان الأمر على خلاف ما أظنه وكنت أتعجب من ذلك وأقول في نفسي هذا من صنع الله الحسن ولطفه الخفي؛ لأن من كان الحامل له على ما وقع الحسد والمنافسة لم ينجح كيده بل كان الأمر على خلاف ما يريد.

ومن عجيب ما أشرحه لك أنه كان في درس بالجامع بعد صلاة العشاء الآخرة في صحيح البخاري يحضره من أهل العلم الذين مقصدهم الرواية وإثبات السماع جماعة ويحضره من عامة الناس جمع جمّ لقصد الاستفادة بالحضور فسمع بذلك وزير رافضي من وزراء الدولة وكانت له صولة وقبول كلمة بحيث لا يخالفه أحد وله تعلق بأمر الأجناد فحمله ذلك على أن استدعى رجلاً من المساعدين له في مذهبه فنصب له كرسيًّا في مسجد من مساجد «صنعاء» ثم كان يسرج له الشمع الكثير في ذلك المسجد حتى يصير عجبًا من العجب فتسامع به الناس وقصدوا إليه من كل جانب لقصد الفرجة والنظر إلى ما لا عهد

لهم به والرجل الذي على الكرسي يملي عليهم في كل وقت ما يتضمن الثلب لجماعة من الصحابة صانهم الله .

ثم لم يكتف ذلك الوزير بذلك حتى أغرى جماعة من الأجناد من العبيد وغيرهم بالوصول إليّ لقصد الفتنة فوصلوا وصلاة العشاء الآخرة قائمة ودخلوا الجامع على هيئة منكرة وشاهدتهم عند وصولهم فلما فرغت الصلاة قال لي جماعة من معارفي: إنه يحسن ترك الإملاء تلك الليلة في البخاري فلم تطب نفسي بذلك واستعنت بالله وتوكلت عليه وقعدت في المكان المعتاد وقد حضر بعض التلاميذ وبعضهم لم يحضر تلك الليلة لّما شهد وصول أولئك الأجناد ولما عقدت الدرس وأخذت في الإملاء رأيت أولئك الأشخاص يدورون حول الحلقة من جانب إلى جانب ويقعقعون بالسلاح ويضربون سلاح بعضهم بعضاً ثم ذهبوا ولم يقع بمعونة الله تعالى وفضله ووقايته.

ثم إن ذلك الوزير أكثر السعاية إلى المقام الأمامي هو ومن يوافقه على هواه ويطابقه في اعتقاده من أعوان الدولة واستعانوا برسائل بعضها من علماء السوْء وبعضها من جماعة من المقصرين الذين يظنهم من لا خبرة له في عداد العلم وحاصل ما في تلك الرسائل إني قد أردت تبديل مذهب أهل البيت عليهم السلام وأنه إذا لم يتدارك ذاك الخليفة بطل مذهب آبائه ونحو هذا من العبارات المفتراة والكلمات الخشنة والأكاذيب الملفقة ولقد وقفت على رسالة منها لبعض أهل العلم ممن جمعني وإياه طلب العلم ونظمنا جميعًا عقد المودة وسابق الإلفة فرأيته يقول فيها مخاطبًا لإمام العصر أن الذي ينبغي له ويجب عليه أن يأمر جماعة يكبسون منزلي ويهجمون مسكني ويأخذوا ما فيه من الكتب المتضمنة لما يوجب العقوبة من الاجتهادات المخالفة للمذهب فلما وقفت على ذلك قضيت منه العجب ولولا أن الرسالة بخطه المعروف لديّ لما صدقت ،وفيها من هذا الزور والكلمات الفظيعة شيء كثير وهي في نحو ثلاثة كراريس.

وعند تحرير هذه الأحرف قد انتقم الله منه فشرده إمام العصر إلى جزيرة من

جزائر البحر مقرونًا في السلاسل بجماعة من السوقة وأهل الحرف الدنيئة وأهلكه الله في تلك الجزيرة ولا يظلم ربك أحداً وكان حدوث هذه الحادثة عليه ونزول هذه الفاقرة به بمرأى ومسمع من ذلك الوزير الرافضي الذي ألف له تلك الرسالة استجلاباً لما عنده وطلباً للقرب إليه وتوددًا له ومن جملة ما وقفت عليه من الرسائل المؤلفة بعناية هذا الوزير رسالة لبعض مشائخي الذين أخذت عنهم بعض العلوم الآلية وفيها من الزور ومحض الكذب ما لا يظن بمن هو دونه وما حمله على ذلك إلا الطمع في الوزير فعاقبه الله بقطع ما كان يجري عليه من الخليفة وأصيب بفقر مدقع وفاقة شديدة حتى صار عبرة من العبر وكان يفد إليّ يشكو حاله وما هو فيه من الجهد والبلاء فأبلغ جهدي في منفعته وما يسد فاقته.

وهكذا جماعة من المترسلين عليّ المبالغين في إنزال الضرر بي، أرجعهم الله إليّ راغمين وأحوجهم لمعونتي مضطرين ولم أعاقب أحداً منهم على ما أسلفه ولا كافيته بما قدمه.

اللهم إني أحمدك على جميل صنعك وجزيل فضلك وجميل طولك حمداً يتجدد بتجدد الأوقات ويتعدد بعدد المعدودات وإني وإن لم أكن أهلاً لما أوليته فأنت له أهل وبه حقيق لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

ومما أسوقه إليك أيها الطالب وأعجبك منه أنه كان لي صديق بمدينة من مدائن «اليمن» جمعني وإياه الطلب والألفة والوداد وكان عالي القدر رفيع المنزلة في العلم كبير السِّن بعيد الصيت مشهور الذكر ولعله كان يفيد الطلبة في الفقه قبل مولدي وقرأ عليه بعض شيوخي ورحل معه إلى «صنعاء» وطلب علوم الاجتهاد في أيام طلبي لها، وكان بيني وبينه من المودة أمر عظيم وله معه مذاكرات ومباحثات وترسلات في فوائد كثيرة هي في مجموعة رسائلي فلما حدث ما حدث من قيام ما قام عليّ من الخاصة والعامة وكان إذ ذاك فارق «صنعاء» وعاد إلى مدينته وعكف عليه الطلبة واستفادوا به في الفنون فقاموا عليه وقالوا: إنه بلغ إلينا ما حدث من أليفك الذي تكثر الثناء عليه والمذاكرة له

من مخالفة المذهب والتظاهر بالاجتهاد فإن كنت موافقًا له قمنا عليك كما قام عليه أهل «صنعاء» وإن كنت تخالفه فيما ظهر منه فترسل عليه فوصلت منه رسالة في عدة كراريس وما حمله على ذلك إلا المداراة لهم والتقية منهم وظاهرها المخالفة وباطنها الموافقة مع حسن عبارة وجودة مسلك ولم أستنكر ذلك منه ولا عاتبته عليه فإن الصدع بالحق والتظهر بما لا يوافق الناس من الحق ولا يستطيعه إلا الأفراد وقليل ما هم.

ووصلت رسائل من جماعة آخرين في مدائن بعيدة من «صنعاء» فيها ما هو موافق لي مقوٍّ لما ذهبت إليه وفيها ما هو مخالف لذلك ولا يزالون مختلفين وليس بعجيب خذلان من خذلني ولم يقم بنصري ولم يصدع بالحق في أمري من علماء «صنعاء»العارفين بالعلوم المتمسكين منها بجانب يفرقون بين الحق والباطل فثورة العامة يتقيها كثير من الناس لا سيما إذا حطبوا في حبل من ينتمي إلى دولة ويتصل بملك ويتأيد بصولة ويأبى الله إلا أن يتم نوره وينصر دينه ويؤيد شرعه.

وبالجملة فالشرح لما حدث لي من الحوادث في هذا الشأن يطول، ولو ذهبت أسردها وأذكر ما تعقبتها من ألطاف الله التي هي من أعظم العبر ومنحه التي لا تبلغها الأفهام ولا تحيط بها الأوهام لم يف بذلك إلا مصنف مستقل.

وليس المقصود هنا إلا ما نحن بصدده من تنشيط طالب العلم وترغيبه في التمسك بالإنصاف والتحلي بحلية الحق والتلبس بلباس الصدق وتعريفه بأن قيامه في هذا المقام كما أنه سبب الفوز بالآخرة ، وهو أيضًا سبب الوصول إلى ما يطلبه أهل الدنيا من الدنيا وأن له الأثر على من خالفه والظهور على من ناوأه في حياته وبعد موته وأنه بهذه الخصلة الشريفة التي هي الإنصاف ينشر الله علومه ويظهر في الناس أمره ويرفعه إلى مقام لا يصل إلى أدنى مراتبه من يتعصب في الدين ويطلب رضا الناس بإسخاط رب العالمين والحمد لله».